السلطان عبد العزيز

فترة الحكم: ١٨٦١-١٨٧٦

السلطان العثماني الثاني والثلاثون

اسم الأب: محمود الثاني

اسم الأم: السلطانة الوالدة بَرْتَوْ نِيفَالْ

محل وتاريخ الميلاد: إسطنبول،
٨ فبراير/شباط عام ١٨٣٠

العمر عند اعتلاء العرش: ٣١ عاما

سبب وتاريخ الوفاة: الاغتيال،
٤ يونيو/حزيران ١٨٧٦

مكان الوفاة وموقع القبر: إسطنبول،
ودفن في مقبرة محمود الثاني في دِيوَانْيُولُو بإسطنبول

أبناؤه: يوسف عز الدين، ومحمود جلال الدين،
ومحمد سليم، ومحمد شَوكَتْ،
وعبد المجيد (الخليفة الأخير)، وسيف الدين

بناته: صالحة سلطان، ونظيمة سلطان،
وأَسْمَا سلطان، وأمينة سلطان

لوحة زيتية للسلطان عبد العزيز، بريشة الفنان بيير ديزيريه جويليمي (Pierre Désiré Guillemet)، سنة ١٨٧٣.

قلادة من الزمرد

عاش السلطان عبد العزيز حياة مريحة خلال عهد السلطان عبد المجيد، شقيقه الأكبر. وخلال فترة إمارته عرفه العثمانيون باتزانه ورباطة جأشه ومظهره الرائع. وكان الناس ينظرون إليه بعد ذلك باعتباره مخرجا لهم من حالة اليأس التي كانوا يعيشونها بسبب الهوس بالتحديث الذي كان يستحوذ على السلطان عبد المجيد والذي وصل إلى درجة تقليد الغرب. كان الناس ينظرون إلى السلطان عبد العزيز باعتباره أشبه بالسلطان ياوُوز سليم، ولما خلف شقيقه الأكبر على العرش، وجد الدولة تمر بمرحلة صعبة؛ فالخزانة الدولة غارقة في الديون، والمشهد الاجتماعي العثماني مازال يضطرب لكنه مستعد للغليان.

أعلن السلطان أنه سيشارك في عملية الاقتصاد في الإنفاق، وهي ضرورة دعت إليها الأزمة المالية المتواصلة. فقام السلطان أولا بتقليص أعداد مسؤولي الدولة في القصر والمكاتب الإدارية الأخرى، بادئا بهؤلاء الذين كانوا يحصلون على رواتب عالية رغم عدم قيامهم بواجباتهم. وكي يقدم القدوة للآخرين قام السلطان بتقليص النفقات العامة للقصر، وتخلى عن ثلث دخله الشخصي. ورغم عدم تمكنه من حل الأزمة المالية فإن الإجراءات التي وضعها موضع التنفيذ يبدو أنها وفرت راحة وانتعاشا جزئيا.

اتبع السلطان عبد العزيز سياسة نشطة تتمثل في تطوير العلاقات داخل دولته وخارجها؛ فأصبح السلطان عبد العزيز أول سلطان بعد السلطان سليم يزور مصر، وكان ذلك في ٣ أبريل/نيسان عام ١٨٦٣، فاستقبله المصريون استقبالا حارا. وكان الغرض من الزيارة تعزيز ولاء هذه الأراضي للدولة العثمانية، بعد أن كانت قد عرفت بتمردها ضد الدولة. واستفاد إسماعيل باشا، حاكم مصر في ذلك الوقت، من زيارة السلطان، ومن ثم بدأ استخدام لقب الخديوي (السيد) للإشارة إلى إسماعيل باشا ومن خلفه من نفس الأسرة باعتبارهم نائبين عن السلطان العثماني في حكم مصر.

وتوجه السلطان عبد العزيز إلى فرنسا بدعوة من نابليون الثالث، إمبراطور فرنسا، وبهذا أصبح أول السلطان عثماني يسافر إلى الخارج من أجل الدبلوماسية، كما كان أول خليفة يزور العالم المسيحي. وغادر السلطان عبد العزيز بعد ذلك إلى لندن بعدما دعته ملكة بريطانيا العظمى للزيارة. وشملت رحلته إلى أوروبا، والتي بدأت في ٢١ يونيو/حزيران عام ١٨٦٧، زيارة إلى بَلْجِيكا وبُرُوسْيا والنمسا، وانتهت في ٧ أغسطس/آب عام ١٨٦٧. ورغم أن رحلة السلطان ساهمت بشكل إيجابي في تعزيز العلاقات الدبلوماسية فإن رؤيته المبنية على الاقتصاد في الإنفاق وموقفه الرافض للتبذير تغيرا بعد هذه الرحلة.

بالإضافة إلى الأزمة المالية كان أكبر تحد أمام السلطان عبد العزيز هو الثورات الداخلية التي حركتها التدخلات الأجنبية. وكان السبب الواضح لهذه الثورات هو أن غير المسلمين لم يكونوا سعداء بالحقوق التي

منحتها لهم المراسيم السلطانية. فاستغلت القوى الأوروبية العظمى هذا الاستياء بشكل كامل كوسيلة للتدخل في الشؤون العثمانية الداخلية.

وبعد التمرد الذي قام به اليونانيون في جزيرة كِريتْ تحت شعار الاندماج مع اليونان، أَجبرت الضغوط الأوروبية السلطانَ على إصدار مجموعة من القوانين أطلق عليها اسم "نِظامْ نَامَهْ"، أجازت إنشاء إدارة خاصة في الجزيرة عام ١٨٦٧.

وقادت الحركةُ القومية السلافية، التي ابتدعها الروس كأداة سياسية للسيطرة على السلاف الأرثوذكس، إلى وقوع اضطرابات في البلقان. واندلع أول تمرد استغله الروس وفجروه في البلقان بين السكان المسيحيين في البوسنة والهرسك، وتبعه التمرد البلغاري.

وفيما كانت الدولة العثمانية مشغولة بإخماد هذه الثورات كانت روسيا تقوم بإثارة الصرب وسكان الجبل الأسود للثورة مثل الآخرين. لكن هذه الثورات تم قمعها في وقت قصير نسبيا. ومن المثير للاهتمام أن الثورات التي احتوتها الدولة العثمانية في أراضيها نقلت إلى أوروبا بطريقة متعمدة قادت الأوروبيين إلى الاعتقاد أن "العثمانيين شنوا غارات ومذابح ضد شعوب مسيحية".

وفي إسطنبول سعى كل من مدحت باشا وحسين عوني باشا (قائد الجيش) -اللذان عزلهما السلطان عبد العزيز من منصبيهما لاعتبارهما خطرَيْن على مصالح الدولة- إلى إيجاد طرق للإطاحة بالسلطان. وكانت الخطوة الأولى هي تحريض طلاب الكليات في إسطنبول على الثورة.

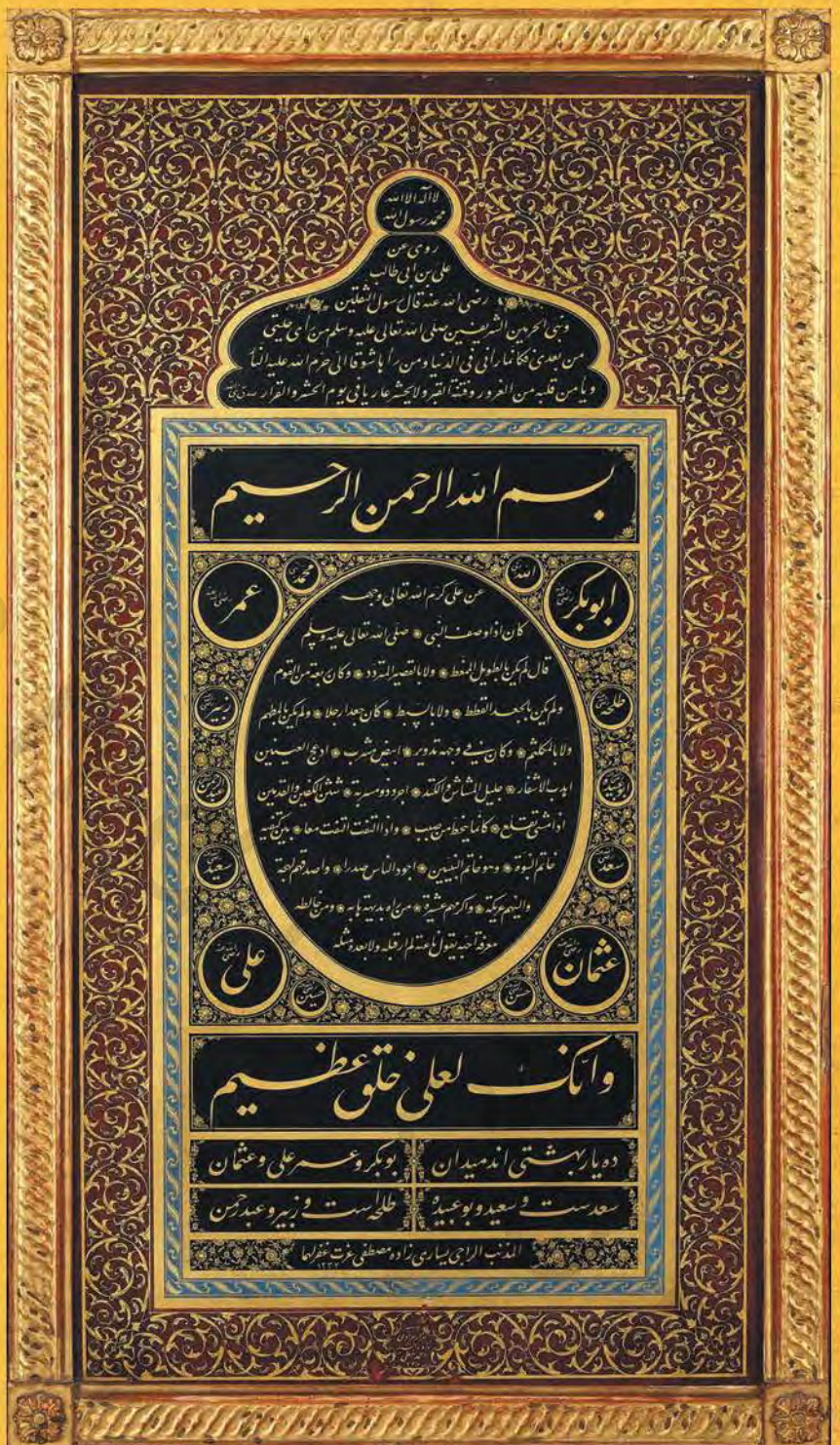

الحلية الشريفة (وصف بالكلمات للرسول ﷺ)
نظمها يسري زاده مصطفى عزت، ويعود تاريخها إلى عام ١٨٢٢.

السلطان عبد العزيز يتخذ وضعية التصوير بجوار مكتبه، من سجلات بتيك هزينة (الكنز المفقود)

قصر بَيْلَرْبَيِ على الساحل الآسيوي للبوسفور، والذي يقع حاليا شمال جسر البوسفور.

وفي المرحلة الثانية من مخططهما دبّر المترجم رشدي وحسين عوني باشا ومدحت باشا لكيفية الإطاحة بالسلطان عبد العزيز. وحصلوا على تصريح ديني من كبير القضاة بإعدام السلطان بذريعة أنه دمر الدولة والممتلكات، وأضاع كنوز المسلمين. وسرعان ما أصبح قصر دولما باغجه تحت الحصار في البر من قبل طلاب الأكاديمية العسكرية بقيادة سليمان باشا، وفي البحر بالسفن الحربية التابعة للأسطول العثماني، الذي كان السلطان قد استثمر به والتزم بإنشائه.

بعد ذلك قام "السرعسكر الحسين عوني باشا" بإحضار ابن شقيق السلطان الأمير مراد إلى "باب السرعسكرية"، وهو المقر العسكري لوزارة الحربية، وتنظيم احتفال لاعتلائه العرش. وأُخذ السلطان عبد العزيز مع عائلته إلى قصر "طوب قابي"، الذي كان في حالة مزرية بسبب عدم استخدامه لسنوات بعد انتقال مقر الحكومة العثمانية إلى قصر دولما باغجه خلال حكم شقيقه الأكبر السلطان عبد المجيد. وبعد نقله تحت المطر، وهو أمر لم يكن يتناسب مع مكانة السلطان، ثم نقل السلطان بناء على طلبه إلى قصرِ "فرعية" في إسطنبول. وبسبب قلقه طوال يومين من أنه يمكن أن يقتل هناك استغل السلطان معظم وقته في قراءة القرآن. ومما زاد من قلقه أن سيفه أُخذ منه. وفي ٤ يونيو/حزيران عام ١٨٧٦ عثر على السلطان عبد العزيز في قصرِ فرعية وقد قُطعت الأوردة عند معصميه، وعلى المنضدة الموجودة أمامه كان المصحف مفتوحا على سورة يوسف. وبعد فحص عابر لجسم السلطان رفض حسين عوني باشا السماح بفحص دقيق. وأشار تقرير الطبيب إلى أن وفاة السلطان عبد العزيز ناتجة عن انتحاره، مشيرا إلى وجود مقص في الغرفة.

السلطان عبد العزيز خلال سنوات حكمه الأخيرة (تصوير عبد الله بِرادَرْلَرْ).

وبعد أحد عشر يوما من وفاة السلطان قام الرائد شركس حسن، "شقيقُ نَشْأَرَكْ قَادِنْ"، زوجةِ السلطان بقتل حسين عوني باشا ورشيد باشا، وزير الشؤون الخارجية، الذي كان من المؤكد أنه هو من قام بقتل السلطان عبد العزيز. ثم أثيرت القضية مجددا في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وقضت محكمة يلدز في ذلك الوقت أن السلطان عبد العزيز قُتل، وعوقب الأشخاص الذين أدينوا بمقتله.

يمكن دراسة عهد السلطان عبد العزيز من جانبين فيما يتعلق بمن شغلوا منصب الصدر الأعظم في عهده. ففترة علي باشا وفؤاد باشا كانت متميزة للغاية عن فترة محمود نديم باشا ومدحت باشا. وبشكل عام كانت الفترة الأولى من حكم السلطان أكثر نجاحا فيما يتعلق بالإصلاحات والدبلوماسية الأجنبية.

ورغم الأزمة المالية فقد افتتح السلطان كليات عسكرية جديدة وأنشأ ثالث أكبر أسطول بحري في العالم.

وامتد طول خطوط السكك الحديدية من ٢٨٠ ميلا إلى ٨٣٥ ميلا. وبدأ إنشاء خط سكك حديدية بين إسطنبول وباريس. وعندما أُبلغ السلطان أن خطوط السكك الحديدية يمكن أن تمر عبر حديقة قصر "طوب قابي" علق قائلا "يمكن للسكك الحديدية أن تمر فوق كتفيّ إذا لزم الأمر"، وهو ما يشير إلى الأهمية التي كان يوليها لخطوط السكك الحديدية والنقل عبرها.

وكان التلغراف، الذي كان أهم وسيلة اتصال في ذلك الوقت، قد انتشر في جميع أراضي الدولة وفي جميع المناطق، حتى في المقاطعات الصغيرة. وأصبح التعليم الأولي إلزاميا للجميع، كما افتتحت مدارس حكومية جديدة ومدارس للفنون للفتيان والفتيات.

واستجابة للضغوط المتزايدة من الدول الغربية قام السلطان عبد العزيز بتطبيق سياسة مبتكرة وجديدة منحت حق الملكية للأجانب، وفي نهاية المطاف حصل جميع الأجانب على الحق في امتلاك أراضٍ داخل جميع الحدود العثمانية، باستثناء الأراضي الحجازية المقدسة.

خلال عهد السلطان عبد العزيز أُنشئ قصرا جيراغان ويَيْلَرْبَيي على البوسفور، وهو ما أثار رد فعل شعبيا كبيرا.

ورعت السلطانة الوالدة بَرْتَوْ نِيفَالْ، والدة السلطان عبد العزيز، إنشاء مسجد الوالدة في آقْسَرَايْ بإسطنبول،

طغراء السلطان عبد العزيز (شعاره السلطاني) على بوابة السلام.

كما أعاد السلطان بناء الجامع الكبير الذي كان قد احترق في منطقة قاسم باشا.

كان السلطان عبد العزيز ماهرا في فن الخط، ومؤلفا موسيقيا ناجحا، وعازفا على الناي، وخبيرا في الموسيقى التركية، ومازال عدد من مؤلفاته الموسيقية موجودا حتى اليوم. كما كان السلطان مهتما بمصارعة "الكاراكُوجاك"، والواقع أن هذا النوع من المصارعة التركية التقليدية مورس في عهده بشكل كبير.

كان عبد العزيز يرى أن نمط الحياة الذي يرمز إلى مفهوم الفِرَنْجَة (أي نمط الحياة الأوروبي) علامة على عدم التقوى؛ وكان يواظب على قراءة القرآن الكريم كل صباح. وكان الشعب معجبا ببساطته وطريقة حياته؛ فكان على سبيل المثال يقوم، مثل أي شخص آخر، بتحية المارة وهو يجلس في مقهى محلي.

أنشئت في عهد السلطان عبد العزيز المئذنة الخامسة في المسجد النبوي، وكان يطلق عليها المئذنة العزيزية، لكنها غير قائمة الآن. كما أنشأ السلطان مسجدا على جبل النور في مكة، وعهد إلى مهندس ومسؤول مياه وأحد الموردين بتيسير توزيع المياه في المدينتين المقدستين، مكة والمدينة.

أجرى السلطان عبد العزيز إصلاحات واسعة في المستشفيات من أجل المحتاجين في مكة والمدينة، وقام بتوسعة هذه المستشفيات بإضافة مبانٍ جديدة إليها. ودفعت السلطانة الوالدة بَرْتَوْ نِيفَالْ، والدةُ السلطان عبد العزيز، نفقاتِ توظيف طقم طبي من الأطباء المهرة والصيادلة والجراحين في هذه المستشفيات. وبالإضافة إلى هذا تم إصلاح الحصون وأسوار المدينة المنورة، كما تم بناء مجلس للمدينة، وغرفتين ورديتين، وثكنة عسكرية في المدينة. وأنشئ حصن الطائف كذلك خلال عهد السلطان عبد العزيز.

كان قصر دُولْمَه باغجة المركز الإداري الرئيسي للدولة العثمانية في الفترة من عام١٨٥٦ إلى ١٩٢٢.
وكانت الغرفة الحمراء بالقصر تستخدم لاستقبال المبعوثين الأجانب.